المقوِّم الرابع

التشريع

التشريع

إنّ الفطرةَ والعقلَ مَلَكَتَانِ للإدراكِ البشريِّ ، وطريقانِ للمعرفةِ الإنسانيّةِ ، يكمِّلُ كلٌّ منهما الآخرَ لمعرفةِ الحقِّ والباطلِ ، وتمييزِ الخيرِ من الشرِّ ، والحسَنِ من القبيحِ .

العقلُ يحلِّلُ ، ويركِّبُ ، ويستنبطُ ، ويستدلُّ ، ويعتقدُ ، ويؤمنُ ، ويشكِّكُ ، ويغلبُ على ظنّه ، ويرفضُ ، وهذه كلّها محاكماتٌ عقليّةٌ ، والعقلُ مختصٌّ بها ، والنفسُ ترتاحُ ، وتتألّمُ ، وتقلقُ ، وتخافُ ، وتحبّ ، وتندفعُ ، وهذا نشاطٌ نفسيٌّ ، فالفطرةُ دليلٌ ، والعقلُ دليلٌ ، وإنهما يتعاونان ، ويتكاملان ، بل إنهما يجتمعان ليعرفَ الإنسانُ من خلالِهما الحقَّ ، ويكشفَ الباطلَ .

ولكنّ العقلَ لا يستطيعُ أن يُلزِمَ صاحبَه بالصوابِ ، فكم من إنسانٍ يتمتّعُ بأعلى ثقافةٍ ، ومع ذلك هو يدخّنُ ، فالمعلومةُ وحْدها لا تكفي ، بل لا بد مِن إرادةٍ تدعِّم هذه المعلومةَ .

وأمّا الفطرةُ فقد تُطْمَسُ ، وقد تُشَوَّهُ ، وقد تمحقُها البيئةُ ، ما الذي بقيَ ثابتاً في حياةِ المسلمين ؟ إنه الوحيُ ، وحيُ السماءِ ،

هذا الوحيُ الذي : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] .

هذا الوحيُ هو الحقُّ الصّرفُ ، وهو الميزانُ ، وهو القيمةُ المطلقةُ ، فلذلك أيّ جولةٍ للعقلِ وصلتْ إلى نتيجةٍ تتوافقُ مع الوحيين فقد أصابَ العقلُ ، وأيُّ نتيجةٍ وصلَ العقلُ إليها تخالفُ الوحيين فهي خطأٌ صارخٌ ، ولا مجالَ لقَبولِها ، لأنّ الوحيَ مطلقٌ في أَحَقِّيتِه ، وأيُّ شيءٍ ترتاحُ له الفطرةُ المشوَّهةُ يخالفُ الدينَ فهذا ليس من الفطرةِ السليمةِ ، بل هو مِن الفطرةِ التي شُوِّهَتْ ، وتغيَّرَتْ .

الكتابُ والسنّةُ إن نعتصمْ بهما فلنْ نضلَّ أبداً ، لكنّ العقلَ يُعِيننا على معرفةِ اللهِ من خلالِ خَلْقِه ، وإنّ الفطرةَ تُعيننا على السيرِ في طريقِ اللهِ من خلالِ راحتِها لطاعةِ اللهِ ، واضطرابِها من معصيةِ اللهِ .

إنّ اللهَ جلّ جلاله كاملٌ كمالاً مطلقاً ، ودينُه كاملٌ كمالاً مطلقاً ، قال سبحانه : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

التمامُ عَدَدِيٌّ ، والكمالُ نوعيٌّ ، أيْ : إنّ عددَ القضايا التي عالجَها الدِّينُ تامٌّ عدداً ، كاملٌ نوعاً .

هذا الدِّينُ دينُ اللهِ ، وحينما بيّنَ اللهُ سبحانه وتعالى أنّ هذا القرآنَ لا يأتيه الباطلُ مِن بين يديه ولا من خَلفِه ، وأنّ هذا الدينَ هو

وحيٌ مِن اللهِ جلّ جلاله ، فلا يجوزُ أنْ نضيفَ عليه ، ولا أنْ نحذِفَ منه ، إنّنا إنْ أَضَفْنا عليه ما ليس منه نشأتْ فِرَقٌ ومذاهبُ ، ثم تعارضتْ ، وتنافستْ ، وصار بأسُها بينها ، وكان هذا سبباً لفُرقتِنا ، وتشرذمِنا ، ولو حَذَفْنا منه لكان الضعفُ والتخلفُ وانهيارُ الحضارةِ .

وردَ في الأثر : « ابنَ عُمَرَ ، دِينَكَ ، إِنَّهُ لَحْمُكَ وَدَمُكَ ، خُذْ عَنِ الَّذِينَ اسْتَقَامُوا ، وَلاَ تَأْخُذْ عَنِ الَّذِينَ مَالُوا »[١] .

وقال ابنُ سيرين : « إنّ هذا العلمَ دينٌ ، فانظروا عمّن تأخذون دينَكم »[٢] .

إنّ قضيةَ الدِّينِ قضيةٌ مصيريّةٌ ، فو الذي نفسُ محمّدٍ بيده! ما بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنّةُ أو النارُ .

أضعُ بين أيديكم مثلاً منتَزَعاً من الواقع : أيُّ نبعٍ انظرْ إلى منبعِه الصافِي ، ثم انظرْ إلى مَصَبِّه ، وقد جاءَته الروافدُ من كلِّ حَدَبٍ وصوبٍ ، إلى أنْ أصبحتْ مياهُه سوداءَ .

هذا الدينُ العظيمُ ينبغي أنْ نعودَ إلى ينابيعِه الأولى ، وهذا هو التجديدُ بالمعنى الدقيقِ ، قد يتوهّمُ البعضُ أنّ التجديدَ في الدينِ أنْ نأتيَ بجديدٍ ، إنّ تجديدَ الدِّينِ له معنى خاصٌّ ، وهو أنْ تزيلَ عنه ما علقَ به ممّا ليس منه .

---

(١) ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ١٣٠) وأخرجه الخطيب في الكفاية .
(٢) ذكره مسلم في مقدمته (١/ ١٤) .

وحينما تنحرفُ فرقةٌ ضالّةٌ عن جوهرِ الدينِ فإنها تؤلِّهُ الأشخاصَ ، وتخفِّفُ التكاليفَ ، وتعتمدُ النصوصَ الموضوعةَ والضعيفةَ ، وتتّجهُ إلى نزعةٍ عدوانيةٍ ، وهذه هي خصائصُ الفرقِ الضالّةِ في التاريخِ الإسلاميِّ ، (تأليهُ الأشخاصِ ـ تخفيفُ التكاليفِ ـ اعتمادُ النصوصِ الموضوعةِ والضعيفةِ ـ النزعةُ العدوانيةِ) .

أما حينما نحافظُ على جوهرِ الدِّينِ وأصولِه ، لا نزيدُ عليها ، ولا نحذفُ منها فسوف يكونُ هذا الدِّينُ سببَ رُقِيِّنَا وسعادتنا .

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ ، يَحْمَدُ اللهَ ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ يَقُولُ : مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ، إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ ، وَكُلُّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّارِ »[1] .

إنّ من خصائصِ الدعوةِ الخالصةِ إلى اللهِ تعالى الاتّباعَ ، لأنّ الخالقَ كاملٌ كمالاً مطلقاً ، ومنهجُه كذلك ، فالذي يدعو إلى اللهِ بإخلاصٍ ينبغي أنْ يتّبعَ ، لا أنْ يبتدعَ ، ومن خصائصِها التعاونُ ، والاعترافُ بما عند الآخرين مِن فضلٍ ، لأنّ الداعيةَ حينما يحملُ همَّ المسلمين يتعاونُ معهم ، ولا يتنافسُ ، ويعترفُ لكلٍّ بفضلِه .

---

(١) النسائي (٥٨٩٢) .

إذاً مِن صفاتِ الدعوةِ الخالصةِ إلى اللهِ الاتّباعُ ، والتعاونُ ، والاعترافُ بفضلِ الآخرين ، لذلك قالوا : « اتّبعْ لا تبتدعْ ، اتّضعْ لا ترتفع ، الورعُ لا يتّسع » .

ولكن قد تكون هناك دعوةٌ إلى الذّاتِ مغلّفةٌ بدعوةٍ إلى الله ، هذه الدعوةُ مِن خصائصِها الابتداعُ لا الاتّباعُ ، التنافسُ لا التعاونُ ، إنكارُ ما عند الآخرين .

وما مِن عملٍ يتذبذبُ بين أنْ يكونَ عملاً عظيماً مقدَّساً كأنْ يكونَ صنعةَ الأنبياءِ ، وأن يكونَ عملاً يضعفُ ، ويصغرُ حتى يكون عملاً مبتذلاً لا يستحقُّ إلا ابتسامةً ساخرةً كالدعوةِ إلى اللهِ تعالى .

إذاً : التشريع هوأهم مقوّمات التكليف ، وهو مجموعة الأوامر والنواهي التي وردت في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وفي الصفحات الآتية سنقف عند مصدري التشريع وقفة متأنية .

* * *

القرآن الكريم

القرآن هدى وبيان ، وموعظة وبرهان ، ونور وشفاء ، وذكر وبلاغ ، ووعد ووعيد ، وبشرى ونذير ، يهدي إلى الحق ، وإلى الرّشد ، وإلى صراط مستقيم ، يخرج الناس من الظلمات إلى النّور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، فيه تبيان لكل شيء ، وهو شفاء لما في الصدور .

عَنْ الْحَارِثِ قَالَ : مَرَرْتُ فِي الْمَسْجِدِ ، فَإِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ فِي الأَحَادِيثِ ، فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَلاَ تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ خَاضُوا فِي الأَحَادِيثِ ؟ قَالَ : وَقَدْ فَعَلُوهَا ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « أَلاَ إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ ، فَقُلْتُ : مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : كِتَابُ اللهِ ، فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، هُوَ الَّذِي لاَ تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ ، وَلاَ تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ ، وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ، وَلاَ يَخْلَقُ

عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِى إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »[1] .

وهو مصدرٌ رئيسٌ لمعرفةِ اللهِ عز وجل ، فالقرآنُ كلامُه ، ومن خلالِه نعرف اللهَ عن طريقِ التدبُّرِ ؛ والسماواتُ والأرضُ خَلْقُه ، ومن خلالهما نعرف اللهَ عن طريقِ التفكّرُ ، والحوادثُ أفعالُه ، ومن خلالِها نعرف اللهَ عن طريقِ النظرِ ، والتأمّلِ .

حينما يقتني أحدُنا آلةً بالغةَ التعقيدِ ، غاليةَ الثّمنِ ، ذاتَ نفعٍ عظيمٍ تراه حريصاً حرصاً لا حدودَ له على اقتناءِ الكُتيِّبِ الذي تصدِرُه الجهةُ الصانعةُ ، والذي يتضمَّنُ طريقةَ الاستعمالِ ، وأسلوبَ الصيانةِ ، فهو حريصٌ على اقتناءِ هذا الكُتيِّبِ ، وعلى ترجمتِه وفهْمِه ، وتنفيذِ تعليماتِه بدقّةٍ بالغةٍ ، وهذا الحرصُ نابعٌ من حرصِه على سلامةِ هذه الآلةِ ، وعلى مستوى مردودِها .

وهذا الإنسانُ بجسدِه الذي يُعدُّ أعقدَ آلةٍ في الكونِ ، ففي خلاياه وأنسجتِه ، وفي أعضائِه وأجهزتِه من الدقّةِ والتعقيدِ والإتقانِ ما يعجزُ عن فهمِ بنيتِها وطريقة عملِها أعلمُ العلماءِ ، وفي هذا الإنسانِ نفسٌ تعتلجُ فيها المشاعرُ والعواطفُ ، وتصطرعُ فيها

---

(١) الترمذي (٢٩٠٦)، الدارمي (٣٣٣١)، ابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٠٠٧).

الشهواتُ والقيمُ والحاجاتُ والمبادئُ ، حيث يعجزُ عن تحليلِها وتفسيرِها أعلمُ علماءِ النفسِ ، وفيه عقلٌ يحوي من المبادئِ والمسلماتِ والقُوى الإدراكيةِ والتحليليةِ والإبداعيةِ ما أَهَّلَهُ ليكونَ سيّدَ المخلوقاتِ .

والآن ألاَ يحتاجُ هذا المخلوقُ المكرَّمُ إلى كتابٍ مِن خالقِه ومربّيه ومدبّرِه ومسيّره ، يبيّن له فيه الهدفَ من خَلقِه ، والوسائلَ الفعّالةَ التي تحقّقُ هذا الهدف ؟

ألا يحتاجُ هذا المخلوقُ المكرّمُ إلى كتابٍ فيه منهجٌ يسيرُ عليه ، ويضبطُ ، ويصحّحُ حركاتِه ونشاطاتِه من الخللِ والعبث ؟

ألا يحتاجُ هذا المخلوقُ البديعُ في خَلقه إلى كتابٍ فيه مبادئُ سلامته ؛ سلامةِ جسدِه من العطبِ ، وسلامةِ نفسِه من التردّي ، وسلامةِ عقلِه من التعطيلِ والتزويرِ .

ألا يحتاجُ هذا المخلوقُ المكرّمُ إلى كتابٍ فيه مبادئُ سعادتِه فرداً ومجتمعاً في الدنيا والآخرةِ ؟

إنه القرآنُ الكريمُ! الذي لا يقِلُّ في عظمةِ إرشادِه وتشريعِه عن عظمةِ إيجادِ السماواتِ والأرض ، قال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام : ١] ، وقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ [الكهف : ١] .

فكما أنّ اللهَ يُحمَدُ على نعمةِ إيجادِ السماواتِ والأرضِ ، كذلك يُحمَدُ بالقدْرِ نفسِه على نعمةِ الإرشادِ ، إرشادِ الإنسانِ من خلالِ القرآنِ إلى طريقِ سلامتِه وسعادتِه الأبديّةِ .

لقد قدَّم اللهُ تعالى تعليمَ القرآنِ على خَلقِ الإنسانِ تقديماً رُتبياً لا تقديماً زمنياً ، لأنه لا معنى لوجودِ الإنسانِ على سطحِ هذه الأرضِ ما لم يكن له منهجٌ يسيرُ عليه ، فقال جلَّ مِن قائلٍ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ [الرحمن : ١-٣] .

واللهُ جلّ وعلا يشهدُ للإنسانِ أنّ هذا القرآنَ كلامُه ، ومن خلالِ الأحداثِ التي يقدّرها اللهُ له أو عليه ، وعندئذٍ يشهدُ القرآنُ للإنسانِ أنّ هذا الذي أُنزلَ عليه القرآنُ هو رسولُ الله ، قال تعالى : ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٦٦] ، وقال سبحانه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

فإذا آمنَ الإنسانُ كما ينبغي ، وعملَ صالحاً في صدقٍ وإخلاصٍ أذاقه اللهُ طعمَ الحياةِ الطيبةِ ، من طمأنينةٍ ، واستقرارٍ ، وتيسيرٍ ، وتوفيقٍ ، وسعادةٍ ، وحُبورٍ ، عندئذٍ يشعر من خلالِ الحياةِ الطيبةِ التي ذاقها مِصداقاً لوعدِ الله ، أنّ اللهَ جلّ جلاله شهدَ له بأنّ هذا القرآنَ كلامُه ، وأنّ هذه الحياةَ الطيبةَ مِن فعْلِه ، قدّرها له تحقيقاً

لوعدِه ، وحينما يتطابقُ فعْلُ اللهِ مع ما في القرآن يقومُ الدليلُ القطعيُّ على أنّ القرآنَ كلامُ الله .

دليلٌ مقابلٌ : قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤] .

فمن أعرضَ عن ذكرِ الله ، والقرآنُ هو ذكرُ الله ، وهَجَرَه ، واتّخذه وراءه ظِهرياً ، واستحلّ محارمَه ، ولم يعبأْ بأمرِه ونهيِه ، ووعدِه ووعيدِه أذاقه اللهُ طعمَ المعيشةِ الضنكِ ، من خوفٍ ، وقلقٍ ، وضيقٍ ، وشِدّةٍ ، وتعسيرٍ ، وإحباطٍ ، وشقاءٍ ، وضياعٍ ، عندئذٍ يشعرُ من خلالِ هذه المعيشةِ الضنكِ التي ذاقها مصداقاً لوعيدِ اللهِ ، أنّ اللهَ شهدَ له بأنّ هذا القرآنَ كلامُه ، وأنّ هذه المعيشةَ الضنكَ من فعْلِ اللهِ قدّرها عليه تحقيقاً لوعيدِه .

العينُ مهما دقّتْ صنعتُها ، ومهما أُحكمتْ أجزاؤُها ، ومهما ارتقتْ وظائفُها ، لا تستطيعُ أنْ تبصرَ الأشياءَ إلاّ بنورِ الشمسِ ، والعقلُ مهما كَبُرَ ورجحَ ، ومهما تعدّدتْ وظائفُه ، ومهما دقّت محاكمتُه ، ومهما نما إبداعُه لا يستطيعُ أنْ يدركَ الحقائقَ إلا بنورِ اللهِ ، والقرآنُ هو نورُ اللهِ ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ١٧٤] .

وحينما يستنيرُ المؤمنُ بنورِ اللهِ فلنْ يضلَّ عقلُه ، ولن تشقى نفسُه ، قال تعالى : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا

﴿يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه : ١٢٣] .

وكيف يضلُّ امرؤٌ يقرأُ القرآنَ ، والقرآنُ يقدِّمُ له تفسيراً صحيحاً لحقيقةِ الكونِ والحياةِ والإنسانِ مِن عندِ مكوِّنِ الأكوانِ ، وواهبِ الحياةِ ، وخالقِ الإنسانِ ؟

فالسماواتُ والأرضُ خُلقت بالحقِّ ، وهو الثباتُ والسموُّ ، ولم تُخلقْ باطلاً ، ولا لعباً ؛ وهما الزوالُ والعبثُ .

والسماواتُ والأرضُ مسخَّرةٌ للإنسانِ تسخيرَ تعريف وتكريمٍ من أجلِ أنْ يؤمنَ ويشكرَ .

والحياةُ الدنيا دارُ ابتلاءٍ ، وانقطاعٍ ، وعملٍ ، والآخرةُ دارُ جزاءٍ ، وخلودٍ ، وتشريفٍ .

والحياةُ الدنيا كما وَصفَها القرآنُ حياةٌ دنيا ، وليست عُليا ، وهي لهوٌ ولعبٌ ، وزينةٌ وتفاخرٌ وتكاثرٌ ، وجمعٌ ، والآخرةُ خيرٌ وأبقى . وهي دارُ القرارِ ، قال تعالى :

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص : ٦٠-٦١] .

والإنسانُ لم يُخلَقْ عبثاً ، ولن يُتركَ سُدىً ، وهو على نفسِه بصيرةٌ ، ولو ألقى معاذيرَه .

وإنه المخلوقُ المكرّمُ الذي خَلقَه اللهُ في أحسنِ تقويمٍ ، وكرّمه

أعظمَ تكريمٍ ، حملَ الأمانةَ التي أشفقتْ مِن حملِها السماواتُ والأرضُ ، مع أنّ الإنسانَ خُلِق ضعيفاً ، وخُلق عجولاً ، وخُلق هلوعاً ، إذا مسَّه الشرُّ كان جزوعاً ، وإذا مسّه الخيرُ كان منوعاً ، إلا المصلّين ، وأن ليس لهذا الإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يجزاه يوم القيامةِ الجزاءَ الأوفى ، وهو يفلحُ ، ويفوزُ إذا أطاعَ الله ورسوله ، وتزكّى ، وذكر اسمَ ربّه فصلى ، ولا ينفعه يومَ القيامةِ مالٌ ، ولا بنونَ إلاّ مَن أتى الله بقلبٍ سليم ، وأنّ الإنسان لفي خسرٍ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحقِّ ، وتواصوا بالصبرِ .

وكيف يضلُّ امرؤٌ يقرأُ القرآنَ ، والقرآنُ يبيّن له أنه لا إله إلا اللهُ ، وهو غالبٌ على أمرِه ، ولكنّ أكثرَ الناس لا يعلمون ، وأنه في السماءِ إلهٌ معبود وفي الأرض إله معبود ، وأنه إليه يُرجع الأمرُ كلُّه ، وأنه على كل شيءٍ وكيلٌ ، وأنه يحكمُ ولا معقب لحكمه أبداً ، وأنه لا يشرك في حكمِه مخلوقاً أحداً ، وأنه ما من دابّة إلاَ هو آخذٌ بناصيتها ، وأنه ما يفتح للناسِ من رحمةٍ فلا ممسكَ لها ، وما يُمسك فلا مُرسل له من بعده ، وأنه لا يغيّرُ ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم ؟

ومن اهتدى بهدي القرآنِ لا يضلّ عقلُه ، ولا تشقى نفسُه ، وكيف تشقى نفسُه وتحزنُ ، وقد منحَه اللهُ نعمةً هي أثمنُ ما في

الحياةِ النفسيةِ ، ألا وهي نعمةُ الأمنِ ، تلك النعمةُ التي عزّتْ على كثيرٍ من الناسِ ، فهو حينما آمنَ بالله وحده ابتعدَ عن الشركِ الجلي والخفي ، وحينما ابتعد عن الشركِ ابتعد عنه العذاب النفسيّ ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

وحينما آمن باللهِ وحْده ، وأنّ الأمرَ كلَّه راجعٌ إليه ؛ حملَه إيمانُه هذا على طاعتِه ، وتركِ الإساءةِ إلى خَلقِه ، عندئذٍ استحقّ نعمةَ الأمنِ ، قال تعالى : ﴿ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

[الأنعام : ٨١ـ٨٢] .

وكيف تشقى نفسُ قارئِ القرآنِ وتحزنُ ، وهي تتلو قولَه تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] ؟

وهل مِن طمأنينةٍ تنعمُ بها النفسُ أعظمُ مِن أنْ يؤكّدَ لك خالقُ الكونِ أنّه لن يضيّعَ عليك إيمانَك ، ولا عملَك الصالحَ ، وأنه لن تكونَ حياتُك كحياةِ عامّةِ الناسِ الذين أعرضوا عن ذكْرِ ربّهم ، فاجترحوا السيئاتِ ، وتاهوا في الظلماتِ ؟

وكيف تشقى نفسُ قارئِ القرآنِ وتحزنُ ، وهي تتلو قولَه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ

﴿ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠-٣٢] .

وهل مِن شعورٍ أشدُّ تدميراً للنفسِ من الخوفِ ؟ فأنت من خوفِ المرضِ في مرضٍ ، وأنت من خوفِ الفقرِ في فقرٍ ، وتوقُّعُ المصيبةِ مصيبةٌ أكبرُ منها .

وهل من شعورٍ أشدُّ رضىً للنفسِ من الندمِ والحزنِ على ما فات ؟ فحينما يُفاجَأُ الإنسانُ بدنوِّ الأجلِ يُصعقُ ، ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٦] ، ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر : ٢٤] ، ﴿ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٧] ، ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٨] .

لكنّ القرآنَ يُطمئنُ المؤمنين الذين آمنوا بالله ، واستقاموا على أمرِه بألاّ خوفٌ عليهم في الدنيا ، لأنّ اللهَ هو وليُّهم وناصرُهم ، ويدافع عنهم ، ويهديهم سواءَ السبيلِ ؛ ولا هم يحزنون على فراقِها ، لأنّ المؤمن ينتقلُ بالموتِ من ضيقِ الدنيا إلى سَعةِ الآخرةِ ، كما ينتقل الوليدُ من ضيقِ الرَّحمِ إلى سَعةِ الدنيا .

وكيف يقعدُ المؤمنُ عن استردادِ حقِّه المغتصبِ ، واللهُ تعالى يقول : ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن

﴿كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة : ١٢] ، وقال : ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال : ١٠] . ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

وقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

[محمد : ٧] .

وكيف يقعدُ المؤمنُ عن استردادِ حقِّه المغتصبِ ، واللهُ عز وجل يخاطبُ المؤمنين الصادقين في كتابه بقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال : ٦٥] ، وبقوله : ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء : ١٠٤] .

ذكر الحافظُ محمدُ بنُ نصرٍ المروزيُّ في جزءِ قيام الليلِ ، عن الأحنفِ بن قيسٍ أنه كان يوماً جالساً فعرضتْ له هذه الآيةُ : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠] .

فانتبه فقال : عليَّ بالمصحفِ لألتمسَ ذِكري اليومَ ، حتى أعلمَ مَن أنا ، ومن أشبهُ ؟

يعني أنه لما علِمَ أنّ القرآنَ قد ذكرَ جميعَ صفاتِ البشرِ ، وبيّن طبقاتِهم ومراتبَهم أراد أنْ يبحثَ عن نفسِه ، في أيّ الطبقات ، وفي أيّ المراتبِ هو ؟ فنشرَ المصحفَ ، وقرأَ ، فمرَّ بقوم : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات : ١٧] .

ومرّ بقوم : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : ١٦] .

ومرَّ بقوم : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

ومرَّ بقوم : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

[الحشر : ٩] .

فوقف الأحنفُ ، ثم قال : اللهم لستُ أعرفُ نفسي هاهنا ، أيْ : لم يجدْ هذه الصفاتِ في نفسِه ، حتى يَعُدَّ نفسَه من هؤلاء ، ثم أخذَ الأحنفُ السبيلَ الآخرَ ، فمرّ بالمصحفِ على قومٍ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات : ٣٥] .

ومرَّ على قوم يُسألون : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ

﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر : ٤٢ـ٤٨]

فوقفَ الأحنفُ ، وقال : اللهم إني أبرأُ إليك من هؤلاءِ ، فما زالَ يقلِّبُ ورقَ المصحفِ ، ويلتمسُ في أيّ الطبقاتِ هو حتى وقعَ على هذه الآيةِ : ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٠٢] فقال : أنا من هؤلاء . . ولعله قالها تواضعاً . . فإذا قرأ أحدُنا القرآنَ فلينظرْ موضعَ نفسِه في كتابِ اللهِ .

في السُّنّةِ النبويّةِ المطهّرةِ أحاديثُ صحيحةٌ بشأنِ القرآنِ ، فعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ »(١) .

وعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَاماً وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ »(٢) .

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ »(٣) .

---

(١) البخاري (٤٧٣٩) .
(٢) مسلم (٨١٧) ، الدارمي (٣٣٦٥) .
(٣) البخاري (٤٦٥٣) ، مسلم (٧٩٨) .

وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالأُتْرُجَّةِ ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ ، وَرِيحُهَا طَيِّبٌ ، وَالَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالتَّمْرَةِ ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ ، وَلاَ رِيحَ لَهَا ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ ، طَعْمُهَا مُرٌّ وَلاَ رِيحَ لَهَا »(١) .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ ؛ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ »(٢) .

ومن حديثٍ موجَّهٍ لسيّدِنا معاذٍ رضي الله عنه : « يَا مُعَاذُ إِنَّ الْمُؤْمِنَ قَيَّدَهُ الْقُرْآنُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ هَوَى نَفْسِهِ وَشَهَوَاتِهِ ، وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَهْلِكَ فِيمَا يَهْوى »(٣) .

وقد ورد عنه ﷺ أنه : « لاَ يَحْزَنُ قَارِئُ الْقُرْآنِ ، وَلاَ يُعَذِّبُ اللهُ قَلْباً وَعَى الْقُرْآنَ ، وَمَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ مَتَّعَهُ اللهُ بِعَقْلِهِ حَتَّى يَمُوتَ»(٤) .

---

(١) البخاري (٤٧٣٢) ، الترمذي (٢٨٦٥) ، أبو داود (٤٨٢٩) .
(٢) البخاري (٤٧٣٧) ، مسلم (٨١٥) ، الترمذي (١٩٣٦) .
(٣) أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٦) ، الطبراني في الأوسط (٨٣١٧) عن معاذ . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٧٠ : وفيه عمرو بن الحصين وهو متروك .
(٤) فيض القدير (٦/ ١١٤) .

ويقول ﷺ أيضاً : « اِقْرَأِ الْقُرْآنَ مَا نَهَاكَ ، وَإِنْ لَمْ يَنْهَكَ فَلَسْتَ تَقْرَؤُهُ »[١] .

ويقول ﷺ : « مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ »[٢] .

* * *

(١) مسند الشهاب (٣٩٢) عن عبد الله بن عمرو ، انظر مجمع الزوائد (١/ ١٨٤) .

(٢) الترمذي (٢٩١٨) عن صهيب . قال أبو عيسىٰ : هذا حديث ليس إسناده بذاك .

السُّنّةُ النبويّةُ المطهّرةُ

إنّ أناساً كثيرين يزعمون بجهلٍ أو بمكرٍ أنّ القرآنَ يُغنِي عن السّنّةِ ، وأنّ اللهَ جعله تبياناً لكلّ شيءٍ ، وأنّ القرآنَ حُفِظَ من التبديلِ ، وأنّ السنةَ لم يُضمنْ لها هذا الحفظُ ، لقد أُلِّفَت كتبٌ كثيرةٌ ، وطُرِحت آراءُ خطيرةٌ ، مفادُها أنه ينبغي أن نستغنيَ بالقرآنِ عن السنةِ .

إنّ السنّةَ النبويةَ الشريفةَ هي ما صحّ عن النبي ﷺ من أقوالٍ ، وما أُثِرَ عنه من أفعالٍ ، وما سجِّل من إقرارٍ ، فهي أقوالٌ وأفعالُ وإقرارُ ، وكلّها من السنةِ النبويةِ ، فإذا كان القرآنُ المصدرَ الأولَ للشريعةِ ، فالسنةُ هي المصدرُ الثاني لها ، والسنةُ هي البيانُ النظريُّ ، والتطبيقُ العمليُّ للقرآنِ الكريمِ .

والقرآنُ الكريمُ بمنزلةِ الدستورِ الذي فيه الأصولُ والقواعدُ الإلهيةُ الأساسيةُ ، التي لابد منها لتوجيهِ الحياةِ الإسلاميةِ ، وهدايةِ البشريةِ للتي هي أقومُ ، أمّا السنةُ فهي المنهاجُ النبويُّ الذي يفصّلُ ما أَجْمَلَ هذا الدستورُ ، ويخصّصُ ما عمّمه ، ويقيّدُ ما أطلَقَه ، ويضعُ له الصورَ التطبيقيّةَ من حياةِ رسولِ الله ﷺ ، وسيرتِه الجامعةِ .

والقرآنُ الكريمُ نفسُه يقرِّر أنّ مهمةَ رسولِ الله ﷺ أنْ يبيّنَ ما أنزلَ اللهُ مِن الكتابِ ، قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٤٣-٤٤] .

وفي آيةٍ أخرى فيها حصرٌ وقصرٌ ، يقول الله عز وجل : ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل : ٦٤] .

ولولا السنةُ لما عرفْنا كثيراً من أحكامِ الإسلامِ ، من عباداتٍ أو معاملاتٍ ، ومَن قرأ كتبَ الفقهِ الإسلاميِّ بمختلفِ مذاهبِه وجدَ بشكلٍ واضحٍ جداً أنّ معظمَ الأحكامِ مأخوذةٌ من سنةِ النبيّ عليه الصلاةُ والسلامُ ، لقد أمرَ القرآنُ بالصلاةِ ، ولكنْ لم يبيِّن عددَ الصلواتِ ، ولا مواقيتَها ، ولا كيفيتَها ، ولا أنواعَها ، من فرضٍ ونفلٍ ، ولكنّ السنةَ المطهرةَ هي التي تولّت تفصيلَ ذلك .

وأمرَ القرآنُ بالزّكاةِ ، ولكنْ لم يبيِّن كلَّ أنواعِ المالِ الذي تجب فيه الزكاةُ ، ولا النِّصابَ اللازمَ لوجوبِ الزكاةِ ، ولا المقدارَ الواجبَ ، ولا زمنَ الوجوبِ ، ولكنّ السنةَ النبويةَ المطهرةَ هي التي حدَّدتْ ذلك كلّه ، وكذلك الصومُ والحجُّ والعمرةُ ، وشؤونُ المعاملاتِ كلُّها بيّنتْها السنةُ النبويةُ المطهرةُ ، فمن أرادَ أن يستغنيَ بالقرآنِ عن السنةِ فقد ألغى الفقهَ الإسلاميَّ وضيَّعَ معظمَ الدِّينِ .

إنّ هذا الزعمَ مِن أنه يمكنُ أن نستغنيَ بالقرآنِ عن السنةِ مخالفٌ للقرآنِ نفسِه ، فقد أمرَ القرآنُ بطاعةِ الله ، وطاعةِ رسولِه ﷺ معاً ، والآيةُ الكريمةُ :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور : ٥٤] .

والآيةُ الثانيةُ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر : ٧] .

فالذي يستغني بالقرآنِ عن السنةِ يستغني عن آياتِ القرآنِ الكريمِ نفسِه ؛ لأنّ القرآنَ الكريمَ يأمرُنا أن نأخذَ ما آتانا النبيُّ ﷺ ، وأن ننتهيَ عما نهانا عنه ، والقرآنُ الكريمُ يأمرنا أن نطيعَ اللهَ ، وأن نطيعَ الرسول ﷺ ، فاللهُ سبحانه وتعالى نطيعُه في كتابِه الكريمِ ، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام نطيعُه في سنّتِه ، وحينما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] ، نردُّه إلى اللهِ أيْ : إلى كتابِه الكريمِ ، ونردُّه إلى الرسولِ أي : إلى سنّتِه المطهرةِ .

بل إنّ القرآنَ الكريمَ قد عدَّ طاعةَ الرسولِ ﷺ من طاعةِ اللهِ ، فقال تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء : ٨٠] .

والقرآنُ الكريمُ حذّرَ أشدَّ التحذيرِ من مخالفةِ أمرِ النبيِّ ﷺ ، فقال تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] .

بل إنّ القرآنَ الكريمَ نفَى الإيمانَ كلياً عمَّن لم يرضَ بحكمِ رسولِ اللهِ ﷺ ، فقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٤ـ٦٥] .

آياتٌ كثيرةٌ جداً قطعيةُ الدَّلالةِ ، واضحةٌ وضوحَ الشمسِ تبيّنُ أنه لابد من طاعةِ الله ، وطاعةِ رسوله ؛ لأن النبيَّ عليه الصلاة والسلام بيّن ما أجْمَلَه القرآنُ ، وقيّد ما أطلَقه القرآنُ ، وخصّصَ ما عمّمه القرآنُ ، بل إنَّ اللهَ سبحانه وتعالى بيَّن أيضاً في القرآنِ الكريمِ أن مهمّةَ النبيِّ ﷺ أن يبيِّنَ ما أُنزِلَ إليه من أحكامِ القرآنِ الكريمِ .

أما السنّةُ نفسُها فقد حذّرتْ من هذا الاتّجاهِ ، وكأنّ اللهَ جل جلاله أَعْلَمَ نبيَّه بما سيكونُ من هذه الفتنةِ ، فتنةِ نبذِ السنةِ ، والاكتفاءِ بالقرآنِ ، بل لعلَّ هذا الحديثَ من دلائلِ نبوةِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام ، فقد جاء في حديث الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ عَنْ

رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ : عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ »[1] .

هذا الزعمُ مخالفٌ لإجماعِ الأمّةِ في جميعِ مذاهبِها ، وفي مختلفِ عصورِها ، فقد كانت الأمّةُ كلُّها ترجعُ إلى السنةِ مع القرآنِ .

أما حجّتُهم الثانيةُ ، مِن أنّ القرآنَ حُفظَ من التبديلِ دونَ السنةِ ، فقد بيَّنَ الإمامُ الشاطبيُّ أنّ حفظَ القرآنِ يتضمّنُ حفظَ السنةِ .

إنك إنْ أصدرتَ مرسوماً ، ثم أَتْبَعْتَه بمرسومٍ تفصيليٍّ ، إن لم تحفظ التفاصيل فما قيمةُ هذا المرسوم ؟

إذا كان اللهُ جل جلاله قد كلَّف النبيَّ عليه الصلاة والسلام أن يبيِّنَ أحكامَ القرآنِ ، فإنْ حفِظَ اللهُ كتابَه ، ولم يحفظْ سنة نبيِّه كأنّ كتابَه لم يُحفظْ ، يقول الإمام الشاطبي : من مقتضياتِ حفظِ اللهِ لكتابه أن يحفظَ سنّةَ نبيِّه .

بل إنّ من لوازمِ حفظِ اللهِ للقرآنِ الكريمِ حفظَه لسنةِ النبيّ عليه الصلاة والسلام ، والحفظُ لا يعني ألاّ تجريَ محاولةٌ للتغييرِ

---

(١) الترمذي (٢٦٦٤) ، وأبو داود (٤٦٠٤) ، وابن ماجة (١٢) .

والتبديلِ ، ولكنه يعني ألاّ تنجحَ هذه المحاولاتُ .

أما كيف يحفظُ اللهُ سنة نبيه ، فقد بيّن هذا النبي عليه الصلاة والسلام ، وذكر هؤلاءِ الذين يحفظون السنة بقوله : « يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ »(١) .

إنّ اللهَ جل جلاله أمدَّ هذه الأمّةَ برجالٍ أشدّاء ، أقوياءَ في الحقِّ ، بذلوا أعمارَهم في سبيلِ حفظِ السنةِ ، ينفون عنها تحريفَ الغالين ، وانتحالَ المبطلين ، وتأويلَ الجاهلين .

عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ غَداً مُسْلِماً فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاَءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ ، فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى ، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى ، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً ، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً ، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ »(٢) .

---

(١) سنن البيهقي الكبرى (١٠/ ٢٠٩) بإسناد صحيح .

(٢) مسلم (٦٥٤) ، وابن ماجه (٧٧٧) .

فمَن تركَ سنةَ النبيّ ﷺ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً ؛ لأنّ اللهَ سبحانه وتعالى أمَرَنا أنْ نأخذَ منه ، وأن ننتهيَ عما نهانا عنه .

ولسيدنا سعد بن أبي وقاص كلمةٌ رائعةٌ ، يقول هذا الصحابيُّ الجليلُ : « ثلاثةٌ أنا فيهنّ رجلٌ ، وفيما سوى ذلك فأنا واحدٌ من الناس ، ما صلّيتُ صلاةً فشغلتُ نفسي بغيرِها حتى أقضيَها ، ولا سِرتُ في جنازةٍ فحدثتُ نفسي بغيرِ ما تقولُ حتى أنصرفَ منها ، ولا سمعتُ حديثاً من رسولِ الله ﷺ إلا علمتُ أنه حقٌّ من اللهِ » .

واليومَ كلّما تقدّمَ العلمُ كشفَ عن جانبٍ من تحدّياتِ السنةِ النبويةِ ، لأن هذا الذي قاله النبيُّ ﷺ لم ينطقْ به عن الهوى ، إنْ هو إلاّ وحيٌ يوحَى .

وبعد أن تحدثنا عن التشريع كمقوِّمٍ من مقومات التكليف وعن ركنيه الأساسيين الكتابِ والسنّةِ ، لا بد من منهج التلقي الذي يعيننا على أخذ الصحيح وترك الباطل وفق ضوابط مستمدة أصلاً من الكتاب والسنة .

* * *

منهجُ التَّلَقِّي

يتلقَّى الإنسانُ خلالَ حياته مقولاتٍ ـ ولا نقول حقائقَ ـ لا تعدّ ولا تُحصى ، وهذه المقولاتُ والطّروحاتُ التي يسمعها الإنسانُ من خلالِ علاقاته الاجتماعيةِ ونشاطاته المتعدّدةِ ، هل يقبلُها كلّها أم يردّها ؟ إنْ قبِلها فبأيّ منهجٍ يقبلُها ؟ وإن ردّها فكيف يردّها ؟ هل هناك من منهجٍ علميٍ يكونُ حَكماً أو مقياساً لما ينبغي أن نقبلَ ، ولما ينبغي أن نرفضَ ؟ فقد مضى على ظهورِ هذا الدينِ العظيمِ ألفٌ وخمسمئة عامٍ تقريباً ، وفي هذه الأعوامِ المديدةِ طُرحَتْ في حقلِ الدينِ طروحاتٌ لا تعدّ ولا تحصى ، أنا كوني مسلماً هل أقبلُها ؟ أم أرفضها ؟ كيف أقبل الذي أقبله ؟ وكيف أرفضُ الذي أرفضُه ؟ لابد من منهجٍ يُعدّ مقياساً ، فحينما يتّجر تاجر في الأقمشةِ لا بد له من مقياسٍ يقيسُ به أطوالَ القماشِ .

إنّ منهجَ التلقّي ومنهجَ البحثِ مهمٌّ جداً في حياةِ المسلمين ، فهو أهمّ من مفرداتِ العلمِ نفسِه ، فبمنهجِ التلقّي تتعلّم كيف تصطادُ السمكَ ، أمّا دونَ منهجِ التلقّي فقد تأكلُ السمكَ مرةً واحدةً .

وهذا المنهجُ له معالمُ وبنودٌ .

البندُ الأول : الحقُّ دائرةٌ تتقاطعُ فيها أربعةُ خطوطٍ :

تُعرَّفُ الحقيقةُ العلميةُ بأنها : حقيقةٌ مقطوعٌ بصحتها ، تطابِقُ الواقعَ ، عليها دليلٌ .

(مقطوع بها) : أي يقينيّةٌ مئة في المئةِ ، لو لم تكن يقيناً لكانت ظنًّا ، أو شكًّا ، أو وهماً ، فالوهمُ نسْبتُه ثلاثون في المئة ، ونسبةُ الشكِّ خمسون في المئة ، أمّا الظنُّ فتسعون في المئة ، لكنّ الحقيقةَ العلميةَ لا تقبلُ الشكَّ ، ولا الوهمَ ، ولا الظنَّ ، لذا ينبغي أن يكونَ مقطوعاً بها .

(تطابِقُ الواقعَ) : فالواقعُ محكٌّ للحقيقةِ ، ولو لم تطابق الواقعَ لكانت جهلاً .

(عليها دليلٌ) : لو ألْغَينا الدليلَ لكان هذا الذي نعتقده تقليداً ، لأنّ الله عز وجل يقول : ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد : ١٩] ، ولمْ يقل : فقل ، قال : ﴿فَٱعْلَمْ﴾ ، فينبغي أنْ ننفيَ عن معتقداتِنا ما كان وهماً ، أو شكًّا ، أو ظنًّا ، أو جهلاً ، أو تقليداً .

فالنقلُ وحيُ اللهِ ، والكونُ خَلقُ الله ، والعقلُ مقياسٌ أودعه اللهُ فينا ، والفطرةُ مقياسٌ نفسيٌّ أودعه اللهُ فينا ، والواقعُ مِن خَلْقه ، فإذا كانت كلُّ هذه المقاييسِ التي نتعاملُ معها مِن عندِ اللهِ عزّ وجل ، أيْ : مِن أصلٍ واحدٍ فينبغي أن تكونَ متّفقةً فيما بينها .

نحن أمامَ حقيقةٍ مقطوعٍ بها ، يؤكّدُها الواقعُ ، عليها دليلٌ ، هذه

الحقيقةُ تمثّل جانباً أساسياً من جوانبِ الدينِ ، بل إنّ الحقيقةَ التي يعتمدها الدينُ هي حقيقةٌ جاء بها النقلُ الصحيحُ ، وأَقرّها العقلُ الصريحُ ، وارتاحت إليها الفطرةُ السليمةُ ، وأكّدها الواقعُ الموضوعيُّ .

فالحقيقةُ دائرةٌ تتقاطعُ فيها أربعةُ خطوطٍ : خطُّ النقلِ الصحيحِ ، وخطُّ العقلِ الصريحِ ، وخطُّ الفطرةِ السليمةِ ، وخطُّ الواقعِ الموضوعيّ ، النقلُ ينبغي أنْ يكونَ صحيحاً ، والعقلُ ينبغي أنْ يكون صريحاً ، لا أنْ يكونَ تبريريًّا في خدمةِ شهواتِ الإنسانِ ومصالحِه ، والفطرةُ قد تكونُ مطموسةً ، والواقعُ قد يكون مزوّراً .

البندُ الثاني : المحسوساتُ ، والمعقولاتُ ، والإخباريّاتُ :

الإنسانُ له حواسّ ، وهناك معرفةٌ عن طريقِ الحواسِ نسمّيها المعرفةَ الحسّيّةَ ، أو اليقينَ الحسيَّ ، والبشرُ وغيرُ البشرِ في هذه المعرفةِ تقريباً سواءٌ ، لكنّ اللهَ سبحانه وتعالى كرّم الإنسانَ بجوهرةٍ هي أعقدُ ما في الكونِ ، إنها العقلُ ، هذا العقلُ أداةُ معرفةِ اللهِ ، إلاّ أنّ من خصائصِه أنه لا بدّ له من شيءٍ محسوسٍ يبني عليه شيئاً غيبيًّا ، فأيّ شيءٍ غابت عينُه ، وبقيتْ آثارُه فالعقلُ سبيلٌ وحيدٌ لمعرفته .

طاولةٌ أمامي ، ظهرتْ آثارُها ، وظهرت عينُها ، ألمسُها بيدي ، أحملُها بيدي ، أتلمّسُ سطحَها بيدي ، فالشيءُ الذي ظهرت عينُه طريقُ معرفتِه الحواسُّ الخمسُ ، أمّا الشيءُ الذي غابت عينُه ،

وبقيت آثارُه فسبيلُ معرفتِه العقلُ ، فالعقلُ مهمّتُه أنْ يرى من خلالِ العينِ شيئاً ، ويحكم على صانعِه ، وعلى هذا فالأثرُ يدلّ على المؤثِّرِ ، والتسييرُ يدلُّ على المسيِّرِ ، والخَلقُ يدلّ على الخالقِ ، والنظامُ يدلّ على المنظِّمِ ، هذه المعرفةُ اسمُها المعرفةُ العقليةُ ، أو الاستدلالُ العقليُّ .

إنّ الشيءَ إذا غابت عينُه ، وغابت آثارُه لم تنفعك الحواسُّ والعقلُ فيه شيئاً ، ولا تستفيدُ في هذه الحالةِ إلا مِن الخبرِ الصادقِ .

فهناك ثلاث دوائر : دائرةُ اليقينِ الحسيِّ لشيء ظهرت عينُه وآثارُه ، ودائرةُ اليقينِ العقليِّ لشيءٍ غابتْ عينُه وبقيت آثارُه ، ودائرةُ اليقينِ الإخباريّ لشيءٍ غابت عينُه وآثارُه .

إنّ أكبرَ مشكلةٍ يعاني منها المسلمون أنهم يأتون بقضيةٍ من المجالِ الإخباريّ ، وينقلونها إلى المجالِ العقليّ ، وهنا يرتَبِكُ العقلُ ، فالعقلُ هو أعظمُ ما أودعه اللهُ في الإنسانِ ، ولكنه محدودُ المهمّةِ ، لو ملكتَ ميزاناً غالياً جداً ، وحسّاساً جداً ، ومتقناً جداً ، إلا أنّ طاقتَه القصوى ١٠ كغ ، فلو أردتَ أن تزنَ به سيارتك ، ووضعته على الأرضِ ، وسرتَ فوقَه لكسرتَه ، هل تقولُ : إن صناعته سيئةٌ ؟ أبداً ، إنك استخدمته فوقَ ما صُنِعَ له ، فأيّ إنسانٍ يأتي بقضيةٍ إخباريةٍ ، ويضعُها تحت المحكِّ العقليّ ، أو في دائرةِ العقلِ يقعُ في متاهاتٍ ، وقد يحمله هذا على رفضِ الدينِ .

المثقَّفون ـ أحياناً ـ يقعون في مغالطاتٍ خطيرةٍ جداً ، قضيةُ الجنّ مثلاً هي قضيةٌ إخباريةٌ ، لا يستطيعُ العقلُ إثباتَها إطلاقاً ، ليس هذا عجزاً منه ، إنك إنْ عرضتَها على العقلِ كلّفتَه ما لا يطيقُ ، كلّفتَه بمهمّةٍ هي خارج اختصاصه ، وكذا قضيةُ الملائكةِ ، وقضيةُ الماضي السحيقِ ، وقضيةُ المستقبلِ البعيدِ ، هذا شيءٌ غابت عينُه وآثارُه ، والعقلُ يحتاجُ إلى آثارٍ ، إلى شيءٍ ملموسٍ ، يحتاجُ إلى غرفةِ نومٍ ليقولَ لكَ : صانعُ هذه الغرفةِ صاحبُ ذوقٍ رفيعٍ ، يحتاج إلى مركبةٍ ليقولَ : معملُ هذه المركبةِ خبرتُه عريقةٌ جداً ، أمّا أنْ تعرضَ على العقلِ شيئاً ليس له أثرٌ ماديٌّ ، وتطالبَه أن يعطيَك الجوابَ هنا يقعُ الإرباكُ ، والتشكّكُ في الدين .

إذاً هناك دائرةُ المحسوساتِ ، والحواسُّ الخمسُ هي الأداةُ الفعّالةُ الوحيدةُ ، وهناك دائرةُ المعقولاتِ ، والعقلُ وحده يقدّمُ لك خيرَ دليلٍ وفهمٍ وحُكمٍ ، أمّا الشيءُ الذي غابت عينُه وآثارُه فدائرتُه اليقينُ الإخباريُّ ، فأنت كونُك مسلماً أيُّ قضيةٍ عُرِضَتْ عليك يجب أنْ تصنِّفَها مع المحسوساتِ، أو مع المعقولاتِ، أو مع الإخباريّاتِ، وإيّاك ، ثم إيّاك ، ثم إيّاك أن تنقلَ قضيةً إخباريةً إلى دائرةِ العقلِ .

لو جلسنا في قاعةٍ مثلاً ، فإنّ فيها أشياءَ محسوسةً كالطاولةِ والكرسيّ ، نراها بأعيننا ، ونلمسها بأيدينا ، هذه دائرةُ المحسوساتِ ، أمّا الكهرباءُ التي في القاعةِ فنرى آثارَها ، فيحكمُ

عقلُنا مِن تكبيرِ الصوتِ ، ومن تألّقِ المصابيحِ بأنّ في هذه القاعةِ كهرباءَ ، لكنْ لو أن الغرفةَ مقفلةٌ فإنه مهما يكن المرءُ ذكيًّا فهل يستطيعُ أنْ يعرفَ ما بداخلها ؟ هذا مستحيلٌ ، إلاّ أن يخبرَك القيِّمُ على هذه القاعةِ أنّ بداخلها آلةَ تكبيرٍ للصوتِ ، مثلاً ، إذاً ثمةَ شيءٌ تلمسُه بيدك ، وشيءٌ تستنتجُه بعقلِك ، وشيءٌ تصدّقُه بأذنك .

الآن نكبِّرُ المثلَ ، بعقلِك وحْده تستطيعُ أن تؤمنَ باللهِ ، لأنّ الكونَ كلَّه ينطق بوجوده ووحدانيته وكمالِه ، وبعقلك وحَده تستطيع أن تؤمنَ بالقرآنِ من خلالِ إعجازِه ، قال تعالى : ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن : ١٩-٢٠] .

لقد حارَ علماءُ التفسيرِ في هذه الآيةِ ، إلى أن اكتُشِفَ من خلالِ المركباتِ الفضائيّةِ أنّ هناك خطاً بين البحرين ، وأن كلّ بحرٍ لا يمكنُ أنْ يختلطَ بالبحرِ الذي يليه ، وأن طبيعةَ هذا الخطِّ مجهولةٌ ، لكنْ لكل بحرٍ مكوِّناتُه ، وكثافتُه ، وملوحتُه .

قال تعالى : ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج : ٢٧] ، لمْ يقل : مِن كل فجٍّ بعيدٍ ، لأن الكرةَ كلما ابتعدتْ عن نقطةٍ فيها دخلت في العمقِ ، دخلت في الخطِّ المنحنِي .

وقال تعالى أيضاً : ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم : ٢-٤] .

في أدنى الأرض ، المعركةُ تمّتْ في غورِ فلسطينَ ، وبعد اكتشافِ أشعةِ الليزر تبيَّنَ أنّ أعمقَ نقطةٍ في اليابسةِ هي غورُ فلسطينَ .

قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾

[النجم : ٤٥ـ٤٦] .

معنى ذلك أن تحديدَ نوعِ الجنينِ ذكراً كان أو أنثى لا علاقةَ للبيضةِ به إطلاقاً ، وكلّما تقدّم العلمُ اكتشفَ إعجازاً علميًّا في القرآنِ لا يكادُ يصدَّقُ ، لذلك كان هذا القرآنُ معجزةَ النبيّ ﷺ الخالدةَ ، ولقد قال سيّدُنا عليٌّ رضي اللهُ عنه : « في القرآنِ آياتٌ لمّا تفسَّرْ » .

النبيّ عليه الصلاة والسلامُ أمَرَنا أنْ نذبحَ الذبيحةَ من أوداجِها دونَ قطعِ الرأسِ بالكاملِ ، ولم يكن في عصرِ النبيِّ ﷺ ، ولا في الجزيرةِ العربيةِ ، ولا في مراكزِ الحضاراتِ شرقاً وغرباً مِن معطياتِ العلمِ ما يسمحُ بتعليلِ هذا التوجيهِ ، بل ولا في العصورِ التي تَلَتْ عصرَه ﷺ ، إلى أنِ اكْتُشِفَ أخيراً قَبْلَ بضعةِ عقودٍ مِنَ الزمنِ أنَّ القلبَ ـ قلبَ الإنسانِ وقلبَ الذبيحةِ ـ ينبضُ بتنبيهٍ ذاتيٍّ يأتيه مِن مركزٍ كهربائيٍّ في القلبِ ، ومع هذا المركزِ الأولِ مركزان كهربائيان احتياطيان لهذا المركزِ ، يعملُ الثّانِي عندَ تعَطُّلِ الأوّلِ ، ويعملُ الثالثُ عندَ تعطُّلِ الثانِي ، ولكنَّ هذا التنبيهَ الذاتيَ الذي يأتي مِن القلبِ يُعطِي النبضَ الطبيعيَ (ثمانينَ نبضةً في الدقيقةِ ، ليس

غير) ، أما حينما يواجهُ الكائنُ خطراً ، ويحتاجُ إلى مئةٍ وثمانينَ نبضةً في الدقيقةِ لتسرُّعِ الدمِ في الأوعيةِ ، وليرتفعَ الجهدُ العضليُّ بزيادةِ إمدادِه بالدمِ فلابد عندئذٍ مِن أنْ يأتيَ أمرٌ استثنائيٌّ كهربائيٌّ هرمونيٌّ من الغدةِ النخاميةِ في الدماغِ إلى الكظرِ ، ثم إلى القلبِ ، وهذا يقتضي أنْ يبقى رأسُ الدابةِ متّصلاً بجسمها حتى يُفَعَّلَ الأمر الاستثنائيُّ برفعِ النبضِ .

بعقلك تستطيعُ أن تؤمنَ بالله موجوداً وواحداً وكاملاً من خلالِ الكونِ ، وأنْ تؤمنَ بالقرآنِ من خلالِ إعجازِه ، وأن تؤمنَ بنبوّةِ النبيِّ ﷺ ، بعد ذلك يتوقّفُ دورُ العقلِ ، ويأتي دورُ الخبرِ الصادقِ .

ثم إنّ ما عجزَ عقلُك عن إدراكه لمحدوديةِ مهمّتِه قد أَبْلَغَكَ الوحيُ به .

العقلُ حِصانٌ تركبه إلى بابِ السلطانِ ، فإذا دخلتَ نصرَ السلطانِ دخلتَ وحدَك ، العقلُ يصلُ بك إلى اللهِ ، ولا يحيطُ باللهِ ، تركبُ مركبَتك الأرضيةَ ، وتصلُ بها إلى ساحلِ البحرِ ، لكنك لا تستطيعُ أن تخوضَ بها البحرَ ، فالعقلُ يصلُ بك إلى اللهِ ، ولا يمكّنك من أن تحيطَ به ، لأنّ كلَّ المخلوقاتِ لا يحيطون بعلمِ اللهِ .

البندُ الثالثُ : إذا كنتَ ناقلاً فالصحّةُ ، أو مدَّعياً فالدليلُ :

البندُ الثالثُ في منهجِ التلقّي وضعَه علماءُ العقيدةِ بينَ أيدينا ، فقالوا : إذا كنتَ ناقلاً فالصحّةُ ، وإذا كنتَ مدَّعياً فالدليلُ .

لو أنك جئتَ بنصٍّ ، فإنّ أخطرَ ما في النقلِ صحّتُه ، لأنه نقلٌ عن اللهِ عز وجل ، وإذا جئتَ برأيٍ فعليك أنْ تدعِّمَه بالدليلِ العقليّ ، والنقليّ ، والواقعيّ ، والفطريّ .

وأخطرُ شيء في الإنسانِ عقيدتُه ، نحن أمامَ كتابٍ ، وأمامَ سُنَّةٍ ، وأمامَ كونٍ ، الكونُ خَلْقُه ، والقرآنُ كلامُه ، والسنّةُ تفسيرُ نبيّه لكلامِه ، والواقعُ خَلْقه ، هل يعقلُ أنْ يتناقضَ خَلقُه مع كلامِه ؟

لا يمكنُ أن يتناقضَ النقلُ مع العقلِ ، لأنّ العقلَ مقياسٌ أودعه اللهُ فينا ، والنقلُ كلامُه .

فإنْ توهّمَ الإنسانُ تناقضاً بين العقلِ والنقلِ فهناك حالاتٌ :

ـ إمّا أنّ النقلَ غيرُ صحيحٍ .

ـ أو أنّ تأويلَ النقلِ غيرُ صحيحٍ .

ـ أو أنّ النقلَ صحيحٌ ، لكن هذه المقولةَ الصادرة عن العقل ليست حقيقةً ، ولكنها نظريةٌ .

لذلك قد يتناقضُ العقلُ الصريحِ مع النقلِ غيرِ الصحيحِ ، أو قد يتناقضُ النقلُ الصحيحُ مع العقلِ غيرِ الصريحِ ، وهذا مبعثُ التناقضِ

إنْ وُجِدَ ، ولأنّ العقيدةَ خطيرةٌ جدًّا ، ولأنها أساسُ صحّةِ العملِ ، فإنها لا تحتملُ الظنّياتِ ، فالعقيدةُ كلُّها يقينياتٌ ، لذلك لا تُقبَلُ العقيدةُ تقليداً في الإسلامِ ، يقبلُ أن تصليَ كما بلَغَك عن صلاةِ النبيِّ ﷺ ، أمّا في الاعتقادِ فلا يقبلُ التقليدُ إطلاقاً ، ولو قُبِلَ التقليدُ في الاعتقادِ لكانت كلُّ الفِرقِ الضالّةِ على حقٍّ ، فما ذنبُ أتباعِها ؟

في العقيدةِ لا بد من البحثِ ، والدرسِ ، وطلبِ الدليلِ ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

إن كنتَ متَّبعاً للنبي ﷺ فادعُ إلى اللهِ على بصيرةٍ ، أي : بالدليلِ والتعليلِ ، ولولا الدليلُ لقالَ مَن شاءَ ما شاءَ ، فعوِّدْ نفسَك ألاّ تقبلَ شيئاً إلا بالدليلِ ، وألاّ ترفضَ شيئاً إلا بالدليلِ .

أرسلَ النبيُّ ﷺ سَرِيّةً ، وأَمَّرَ عليهم أنصارياً ، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : « بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلاً مِنْ الأَنْصَارِ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ ، فَغَضِبَ ، فَقَالَ : أَلَيْسَ أَمَرَكُمْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : فَاجْمَعُوا لِي حَطَباً ، فَجَمَعُوا ، فَقَالَ : أَوْقِدُوا نَاراً ، فَأَوْقَدُوهَا ، فَقَالَ : ادْخُلُوهَا ، فَهَمُّوا ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضاً ، وَيَقُولُونَ : فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ النَّارِ ، فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتْ النَّارُ ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ ،

فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ »[١] .

يعطَّلُ العقلُ مع القرآنِ والسنةِ فقط ، وما سوى ذلك فالعقلُ لا يعطَّلُ أبداً .

البندُ الرابعُ : المسلمُ أمام ثلاثةِ نصوصٍ لا رابعَ لها :

النصُّ الأولُ : القرآنُ الكريمُ ، والقرآنُ كلامُ اللهِ ، والقرآنُ الكريمُ قطعيُّ الثبوتِ ، فليس لنا معه إلا حركةٌ واحدةٌ ، أنْ نحاولَ فَهْمَه .

النصُّ الثاني : السُّنَّةُ ، وهي ظنيّةُ الثبوتِ ، فنحن مكلَّفون مرّتين ، مرَّةً أنْ نتيقَّن من صحّةِ الحديثِ ، فقد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »[٢] .

ثمّ نحن مكلَّفون أنْ نفهمَ مرادَ النبيِّ ﷺ من الحديثِ .

مع القرآنِ حركةٌ واحدةٌ ، أن نفهمَ النصَّ ، أمّا مع السنّةِ فحركتان ، أن نتيقَّن من صحّةِ النصِّ ، وأن نفهمَ النصَّ .

النصُّ الثالثُ : أيُّ نصٍّ على الإطلاقِ غيرُ الوحيين ، لأيّ إنسانٍ على وجه الأرضِ مهما علا شأنُه ، ومهما كبُرَ اسمُه ، لنا معه ثلاثُ

---

(١) البخاري (٤٠٨٥) ، مسلم (١٨٤٠) .

(٢) البخاري (١٠٧) ، مسلم (٣٠٠٤) عن أبي سعيد الخدري .

حركاتٍ ، أنْ نتيقَّن من صحّةِ نسبتِه إلى صاحبه ، كالقولِ المنسوبِ لصحابيٍّ : « المرأةُ شرٌّ كلُّها ، وشرُّ ما فيها أنه لا بد منها » ، هذا الكلامُ لا أصلَ له ، قال ﷺ : « أَكْرِمُوا النِّسَاءَ ، فَوَاللهِ مَا أَكْرَمَهُنَّ إِلاَّ كَرِيمٌ ، وَمَا أَهَانَهُنَّ إِلاَّ لَئِيمٌ ، يَغْلِبْنَ كُلَّ كَرِيمٍ ، وَيَغْلِبُهُنَّ لَئِيمٌ ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ كَرِيماً مَغْلُوباً مِنْ أَنْ أَكُونَ لَئِيماً غَالِباً »[١] .

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لا تكْرهُوا الْبَنَاتِ ، فَإِنَّهُنَّ الْمُؤْنِسَاتُ الْغَالِيَاتُ »[٢] .

نتيقَّن من صحةِ نسبةِ القولِ أولاً ، ثم نتيقَّن مِن فهْمِه ثانياً ، ونقيسُه بالكتابِ والسنّةِ ثالثاً ، فإنْ وافقَهما فعلى العينِ والرأسِ ، وإنْ خالفَهما تركناه ، ولم نعبأْ به .

إنّ هذا العلمَ دِينٌ ، والدينُ مصيريٌّ ، وليس من المعقولِ أنْ نأخذَ الدِّينَ من زيدٍ وعُبيدٍ ، الدّينُ قضيةٌ تنتهي إلى حياةٍ أبديةٍ في جنةٍ أبديّةٍ ، أو نارٍ أبديّةٍ ، أيكون الإنسانُ بعدَ هذا ضحيةَ إنسانٍ ؟

إذا صَحّت العقيدةُ صحّ العملُ ، وإن فسدتْ فسدَ العملُ ، والعقيدةُ أساسُ الدّينِ ، والعقيدةُ هي الميزانُ ، والخطأُ في الوزنِ

---

(١) فيض القدير (٣/ ٤٩٦) ، وانظر كشف الخفاء (١/ ٤٦٣) .

(٢) مسند أحمد (٤/ ١٥١) ، ومعجم الطبراني الكبير برقم (٨٥٦) عن عقبة بن عامر .

لا يتكرَّرُ ، أمّا الخطأُ في الميزانِ فلا يُصَحَّحُ ، يمكن أن تخطئَ ، وتتوبَ ، وانتهى الأمرُ ، أمّا إن كان هناك خللٌ في العقيدةِ فلا يتوبُ الإنسانُ ، بل يتّهمُ الآخرين بالخطأ ، فالمبتدعُ لا تُرجى توبتُه .

إنّ أخطرَ شيءٍ في حياةِ المسلمِ عقيدتُه ، فيجب أنْ يستَقِيَها من الكتابِ والسنّةِ ، ويجبُ ألاَ يقبلَ شيئاً إلا بالدليلِ ، وألاّ يرفضَه إلا بالدليلِ ، مِن أجلِ أنْ تصحّ العقيدةُ ، وإنْ صحّت العقيدةُ يرجى له الاستقامةُ والتوبةُ .

المسلمون بحاجةٍ ماسّةٍ إلى أنْ تَتَوَحَّدَ صفوفُهم ؟ ويكونُ ذلك إذا عادوا إلى النصوصِ الصحيحةِ ، لأنّ الذي يجمعُنا هو الكتابُ والسنّةُ ، والذي يفرِّقنا هو الآراءُ المنحرفةُ في الدين ، لذلك أهلُ الرأيِ هم أخطرُ فئةٍ في المجتمعِ .

لأنّ هذه الفئةَ تنطلقُ من رأيٍ معيَّنٍ يوافق أهواءَها ، وتجعلُ النصوصَ في خدمةِ رأيِها ، تبحثُ في النصوصِ عن نصٍّ يؤيّدُها ، وتتعامى عن نصٍّ يخالفُها ، فإن كان هناك نصٌّ موضوعٌ يؤيّدُهم تمسكوا به ، وإنْ كان هناك نصٌّ صحيحٌ يخالفُهم تجاهلوه ، وهم بهذا يجعلون الدينَ فِرَقاً وشِيَعاً ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن

تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام : ٦٥] .

حينما ينطلقُ الإنسانُ من نصٍّ موضوعٍ ، أو من نصٍّ ضعيفٍ ، أو من تأويلٍ مغلوطٍ تفرَّقْنا طرائقَ قِدَداً ، ومِللاً شتّى ، ونحن الآن بحاجةٍ إلى الوحدةِ ، وحدةِ القلوبِ والمفهومات ، وحدةِ القدراتِ ، وحدةِ الأهدافِ ، وحدةِ المنطلقاتِ ، هذا الذي يَعْنينا ، ولا يجوزُ أن تنتميَ إلى غيرِ مجموعِ المؤمنين ، أمّا إذا انتميتَ إلى فقاعةٍ صغيرةٍ ، أو إلى فئةٍ منحرفةٍ فهذا مِن شأنِه أنْ يمزِّقَ ، قال تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٥] .

والآية الثانية : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر : ٨٨] .

المسلمُ أخٌ لكلّ مؤمنٍ ، ولو لم يكن في مسجدِه ، ولو لم يكن من حَلقته ، ولو لم يكن من طريقتِه ، هذا الذي يجمعنا ، وتفرُّقنا الانتماءاتُ الجزئيةُ ، قال سبحانه في كتابه : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

والمسلمون أقوياءُ بوحدتِهم ، ضعفاءُ بتمزّقِهم ، هذا هو منهجُ التلقِّي .

لو أنَّ غرفةً فيها ألفُ قطعةٍ صفراءَ تلمعُ ، وأخبرناك أنّ من هذه الألفِ مئةَ قطعةٍ من الذهبِ الخالصِ من عيار (٢٤) ، ومئةَ قطعةٍ من عيار (٢١) ، ومئةً ثالثةً من عيار (١٨) ، ومئةً رابعةً من عيار

(١٦) ، ومئةً خامسةً من عيار (١١) ، ومئةً سادسةً من النحاسِ المطليِّ بالذهبِ ، ومئةً سابعة من الحديدِ ، وأنت معك ربع ساعة لتأخذ مئةَ قطعةٍ منها فقط ، لو أنك تملكُ جهازاً ، واستطعتَ أن تختارَ الذهبَ الخالصَ من عيار (٢٤) لأصبحتَ غنيًّا ، أمّا إن انتقيتَ الحديدَ فالمشكلةُ كبيرةٌ .

بطولتك أنْ تملكَ مقياساً للتلقِّي ، لأنّ ما كُتِبَ في الدين لا يُعدّ ولا يحصى ، والناسُ فِرَقٌ ، ومِلَلٌ ، ونِحَلٌ وَأَوْهامٌ ، وتزويرٌ .

لماذا ظهرتِ المذاهبُ الأربعةُ ؟

في الإنسانِ ثوابتُ ومتغيِّراتٌ ، فالنصوصُ قطعيةُ الدلالةِ تغطِّي الثوابتَ ، والنصوصُ ظنّيةُ الدلالةِ تغطِّي المتغيِّراتَ ، أَمَرَنا اللهُ عز وجل بدفعِ الزكاةِ ، هناك مدينةٌ وريفٌ ، لو أعطيتَ إنساناً يسكنُ في المدينةِ كيساً من القمحِ لكان بلاءً عليه ، كيف يطحنُه ، كيف يخبزُه ، أعطِهِ مبلغاً من المالِ يحسنُ الانتفاعَ به .

قال الله عز وجل : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [المزمل : ٢٠] .

لم يذكرْ كيفيةَ دفعِ الزكاةِ ، فجاء العلماءُ ، واجتهدوا معتمدين على نصوصِ السنّةِ ، قال بعضهم : تُدفَعُ الزكاةُ عيناً ، وقال آخرون : تُدفَعُ الزكاةُ نقداً ، وهذا الاختلافُ ليس اختلافَ تناقضٍ ، إنما هو اختلافُ تنوُّعٍ وغنًى ، فالعلماءُ المجتهدون اتِّفاقُهم حُجّةٌ قاطعةٌ ، واختلافُهم رحمةٌ واسعةٌ .

أوضِّحُ هذا بمثالٍ :

إذ قلنا : أعطِ فلاناً ألفاً وخمسمئة درهمٍ ، هذا النصُّ قطعيّ الدلالة ، لا يحتاجُ لا إلى مفسِّرٍ ، ولا إلى مجتهدٍ ، ولا إلى فقيهٍ ، أمّا لو قلنا : أعطِ فلاناً ألفَ درهمٍ ونصفه ، فعلام تعود الهاءُ ؟ على الألْف ، إذاً أعطِه ألفاً وخمسمئة ، على الدرهمِ ؟ إذاً أعطِه ألفاً ونصفَ درهمٍ ، فهذا النصُّ احتماليٌّ .

عندما يأتي الإنسانُ بنصٍّ احتماليٍّ فهذا من ضعفِه باللغةِ ، هو يريدُ معنًى واحداً ، ولكنه جاء بعبارةٍ واسعةٍ ، فكل تشريعٍ أرضيّ يحتاجُ إلى تفسيرٍ وشرحٍ واجتهاداتٍ ، أما الإلهُ فإذا جاء بنصٍّ احتماليّ فمعنى ذلك أنه يريدُ كلّ الاحتمالاتِ رحمةً بعباده ، وهذا فرقٌ كبيرٌ جداً بين النصّ الاحتماليّ الإلهيّ ، والنصّ الاحتماليّ البشريّ ، لماذا ظهرت المذاهب إذاً ؟ لأنّ في الكتابِ والسنةِ نصوصاً احتماليةُ الدلالةِ فيها مقصودةٌ ، والاحتماليُّ يراد به كلّ المعاني توسعةً على العبادِ ، ورحمةً بهم .

المرأةُ المعذورةُ التي لم تستطعْ أن تطوفَ طوافَ الإفاضةِ ، عند الأحنافِ عليها بَدَنَةٌ ، أي جَمَلٌ ثمنُه مئة وخمسون ألفاً ، وعند الشافعيةِ ينتظرُها قومُها ، وتغدو أميرةَ الحجّ ، وعند المالكيةِ تصوفُ البيتَ ، ولا شيءَ عليها ، لو أنّ المرأةَ كانت ميسورةً نقول لها : أطعمي الفقراءَ ، ولو أن للمرأة ابناً في جدَّةَ ، وزوجُها تاجرٌ ، نقول

لها : انتظري ، والمرأة الملحَقةُ بفوجٍ لا تملكُ قوتَ يومِها نقول لها : طوفي البيتَ ، ولا شيءَ عليك .

* * *